

عن إيجاز الحذف القرآن في السديم

الدكتور : محمد أحمد الحوفي

عن ايجاز الحذف في القرآن الكريم

للدكتور محمد احمد الحوفي

١ - خير ما أقدم به بحشى هذا أن أذكر نفسى بما استنه كثير من أساتذتنا القدامى ، اذ كانوا يختلفون ويستدركون بعضهم على بعض ، ولكن كثيرا منهم كانوا يحرصون على عفة ألسنتهم وأقلامهم ، فلا يزيدون على مثل قولهم : هذه اللفظة أثبتتها فلان ، وأنكرها فلان ، أو لم يعرفها فلان ، أو خلافا لفلان ، وما أشبه هذا مما لا يتعدى الى الوصف بجهل أو غباء أو حقد أو ضلال . ومن الأمثلة على هذا السنن الطيب أن أبا حاتم روى أن الأصمعى قرأ على أبى عمرو بن العلاء بيتا للحطيئة هو :

وغررتني وزعمت أنس — ك لابن في الصيف تامر

مسکذا :

وغررتني وزعت أنس — ك لاتي بالضيف تأمر

أى لا تتوانى عن ضيفك بتعجيل القرى اليه ، فقال له أبو عمرو :
أنت والله فى تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة •

وقال القاضي جابر بن هبة الله : قرأت على الحريري مقاماته ،

ومنها قوله :

يا أهل ذا المغنى وقيتم شرا ولا لقيتم ما بقيتم ضرا

قد دفع الليل الذى اكفها الى ذراكم شعنا مغبرا

فقرأت البيت الثانى : سغبا معترا •

ففكر الحريرى ثم قال : والله لقد أجدت فى التصحيف ، وانه لأجود ،
فرب شعث منغبر غير محتاج ، ولكن السغب المنعتر محتاج ، ولولا
أنى كتبت خطى الى هذا اليوم على سبع مئة نسخة قرئت على لغيرته
كما قلت •

ومن هذا أيضا أن عبد الله بن عمر سئل : كم اعتمر رسول الله صلى
الله عليه وسلم ؟

فقال : أربعا ، احداهن فى رجب •

وكانت السيدة عائشة تسمع ، فقالت : يرحم الله أبا عبد الرحمن ،
ما اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهو معه ، وما اعتمر فى
رجب قط (١) •

فلنذكر علماءنا السابقين بالثناء والتقدير ، سواء وافقناهم أو
خالفناهم ، فقد نهضوا بواجبهم العلمى خير نهوض ، ومهدوا لنا السبيل ،
وذللوا كثيرا من الصعاب •

٢ - أما الحذف الذى سأعرض ضربين اثنين منه ، فهو حذف كلمة
أو جملة أو جمل ، اعتمادا على أن فى الكلام المذكور ما يدل على المحذوف
لفظا أو سياقاً ، فلا خفاء فى معرفة المحذوف ، ولا اخلال بالفهم ، ولهذا
اشتروا أن يكون فيما أبقى دليل على ما ألقى (٢) •

(١) الإجابة لايراد ما استدرسته عائشة على الصحابة للزركشى ١٢٩
وصحيح مسلم بشرح النووى ٨ / ٢٣٧ •

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ / ١١١ •

والغرض من هذا الحذف إثارة انتباه المخاطب وتحريك شوقه الى إدراك المعنى ، فيعظم في نفسه شأنه حينما يدركه ، كما أن يشعر بالرضا حينما يستنبط بنفسه ما حذف من الكلام . هذا الى ما في الحذف من تحصيل المعنى الكثير باللفظ القليل ، مع الوفاء بالمعنى .

(اولا)

حذف خبر المبتدأ

الأصل في خبرا المبتدأ ألا يحذف ، لأن المبتدأ والخبر معا يؤديان المعنى المراد ، وهما متصلان مرتبطان ، فاذا كان الخبر جملة اسمية أو فعلية فلا بد من اشتغالها على رابط يعود الى المبتدأ ويصله بالخبر .

مثال الجملة الاسمية قوله تعالى : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٣) .

ومثال الجملة الفعلية قوله سبحانه : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » (٤) .

وانه ليسترعى الانتباه أن أسلوب القرآن امتاز فيما امتاز به بحذف خبر المبتدأ في كثير من الآيات .

ولقد اختلف المفسرون في هذا الحذف على التفصيل الذي سأعرضه وأعقب عليه ، متدرجا مع المفسرين تدرجا زمانيا مرتبا على سنوات الوفاة .

(الآية الاولى)

قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا

(٣) سورة البقرة ٣٩ .

(٤) سورة المؤمنون ٧٥ .

وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب
والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من
كان مختالا فخورا . الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون
ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (٥) .

فأين خبر الدين ؟

١ - ذهب الطبرى (٣١٠ هـ) الى أن الله لا يحب المختال الفخور
الذى ييخل ، ويأمر الناس بالبخل ، وقال ان (الذين) يحتمل أن يكون
فى موضع رفع ردا على ما فى قوله (فخورا) من ذم ، ويحتمل أن يكون
نصبا على النعت لمن (٦) .

٢ - وذهب الزمخشري (٥٣٨ هـ) الى أن (الذين) بدل من قوله
(من كان مختالا فخورا) أو نصب على الذم ، أو رفع على الذم ، ويجوز
أن تكون (الذين) مبتدأ خبره محذوف ، كأنه قيل الذين يخلون ويأمرون
الناس بالبخل أحقاء بكل ملامة (٧) .

٣ - وذهب القرطبى (٦٧١ هـ) الى أن (الذين) فى موضع نصب
على البدل من (من كان مختالا فخورا) ولا يكون صفة ، لأن (من)
و (ما) لا يوصفان ولا يوصف بهما ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع ،
فيعطف عليه قوله تعالى « والذين ينفقون أموالهم رياء الناس » ويجوز
أن يكون ابتداء والخبر محذوف ، أى الذين يخلون لهم كذا ، أو يكون
الخبر « ان الله لا يظلم مثقال ذرة » ويجوز أن يكون منصوبا باضمار
أعنى (٨) .

(٥) سورة النساء ٣٦ - ٣٧ .

(٦) تفسير الطبرى ٥ / ٥٤ .

(٧) الكشف ١ / ٢٦٨ .

(٨) تفسير القرطبى ٥ / ١٩٢ .

٤ - أما النيسابورى (٧٢٨ هـ) فلم يذكر شيئا (٩) .

٥ - وكذلك ابن كثير (٧٧٤ هـ) (١٠) .

« تعقيب »

١ - يبدو التكلف فى اعراب (الذين) نعتا لمن أو بدلا من (من) لأن هذا الاعراب قائم على تأويل « من كان مختالا فخورا » بالجمع لينسجم التعبير مع (الذين) .

كما يبدو التكلف فى اعراب (من) مفعولا لفعل ذم محذوف ، لأن الآية السابقة تنص على كراهية الله تعالى للمختال الفخور ، وهذه الكراهية أشد من الذم ، فكيف يستحق المختال الفخور كراهية الله له ، ولا يستحق هذه الكراهية البخل بنعم الله الذى يأمر غيره بالبخل ، بل يستحق الذم فحسب ؟

هذا الى أن الذوق لا يستريح الى هذا التقدير ، ولا يستريح الى اعراب (الذين) مفعولا لفعل محذوف تقديره أعنى .

أما اعرابها مبتدأ عطف عليه « والذين ينفقون » ليكون الخبر مؤخرا على هذه الصورة فإنه إبعاد للخبر عن المبتدأ .

٢ - فما التقدير الذى يستحق الايثار ؟

لقد ذكر هذا التقدير بعض المفسرين فيما سبق ، وهو أن (الذين) مبتدأ خبره محذوف .

فاذا أردنا تقديره تقديرا صحيحا كان علينا أن تدبر ختام الآية الكريمة وهو قوله تعالى : « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » وتقدير هذا

(٩) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٥ / ٤٨ .

(١٠) تفسير ابن كثير ١ / ٤٩٦ .

الخبر يجيء على هذه الصورة : الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله كفار بنعم الله أو مستحقون لعذاب الله ، وقد أعد الله للكفار عذابا مهينا .

ومن هنا يتبين أن التذليل « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » دل على خبر المبتدأ وأغنى عنه .

« الآية الثانية »

قال تعالى : « والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » (١١) .

١ - ذكر الطبري أن (الذين) في موضع جر عطا على (الكافرين) في الآية السابقة « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (١٢) .

٢ - ولم يتعرض الزمخشري لموقع (الذين) (١٣) .

٣ - وقال القرطبي (٦٧١ هـ) أن (الذين) معطوف على (الذين يخلون) ، وقيل هو عطف على (الكافرين) فيكون في موضع خفض (١٤) .

٤ - وقال النيسابوري (٧٢٨ هـ) أن (الذين) معطوف على (الذين يخلون) (١٥) .

٥ - ولم يتعرض ابن كثير (٧٧٤ هـ) لموقع الذين (١٦) .

(١١) سورة النساء ٣٨ .

(١٢) تفسر الطبري ٥ / ٥٦ .

(١٣) الكشف ١ / ٢٦٨ .

(١٤) تفسر القرطبي ٥ / ١٩٣ .

(١٥) تفسر النيسابوري على هامش الطبري ٥ / ٤٨ .

(١٦) تفسر ابن كثير ١ / ٤٩٦ .

« تعقيب »

١ - أستبعد اعراب (الذين) في موضع جر عطفًا على (الكافرين) في الآية السابقة ، لأن الذين ينفقون أموالهم مراعاة للناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ألصق بالكفر من الذين ييخلون بنعم الله ويكتمون خيره وفضله ، فكيف يوصف هؤلاء البخلاء بالكفر ويتوعدهم الله بعقاب الكفار ، ثم يجيء تابعا لهم ومعطوفا عليهم الذين ينفقون مراعاة للناس الجاحدون بوجود الله تعالى المنكرون ليوم القيامة ؟ •

٢ - هذه ملاحظة ، والملاحظة الثانية أن (الذين ينفقون) لو كانت معطوفة على (الكافرين) لكان الأولى أن يكون الأسلوب : وللذين ينفقون أموالهم رثاء الناس •

٣ - وأما إعراب (الذين ينفقون) معطوفا على (الذين ييخلون) فإنه لم يحقق شيئا ، لأن الخبر ما زال في حاجة الى تقدير •

٤ - فما الوجه الصحيح ؟

أرى أن خبر (الذين) محذوف دل عليه قوله تعالى « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » أى : الذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر عصاة لله ، أو خاضعون للشيطان ، أو مستحقون عذاب الله ، ومن يكن الشيطان له قرينا جره الى هذا المصير •

« الآية الثالثة »

قال الله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » (١٧) •

اين خبر الذين ؟

(١٧) سورة الاعراف ٤٢ •

- ١ - لم يذكر الطبري شيئاً (١٨) .
- ٢ - ورأى الزمخشري أن « لا نكلف نفساً إلا وسعها » جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يكتنهمه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع ، وهو الامكان الواسع غير الضيق من الايمان والعمل الصالح (١٩) .
- ومعنى هذا أن جملة « أولئك أصحاب الجنة » هي الخبر .
- ٣ - ورأى القرطبي أن « لا نكلف نفساً إلا وسعها » كلام معترض، وأن خبر « الذين » هو « أولئك أصحاب الجنة » (٢٠) .
- ٤ - ورأى النيسابوري هذا الرأي ، وزاد عليه أنه يصح أن تكون جملة « لا نكلف نفساً إلا وسعها » هي الخبر ، والعائد محذوف تقديره نفساً منهم (٢١) .
- ٥ - ولم يذكر ابن كثير شيئاً عن موقع « الذين » (٢٢) .

«تفقيب»

- ١ - خير ما قالوه في إعراب الآية الكريمة أن « الذين آمنوا » مبتدأ خبره « أولئك أصحاب الجنة » .
- ولكن هذا لا يمنع من تقدير خبر محذوف مفهوم من قوله تعالى : « أولئك أصحاب الجنة » تقديره مثلاً : ثوابهم عظيم ، فيكون الأسلوب على هذه الصورة : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثوابهم عظيم ، لا يكلف الله نفساً من العمل الصالح إلا ما تطيقه ، أولئك أصحاب الجنة .

(١٨) تفسير الطبري ٨ / ١٣٣ .

(١٩) الكشف ٢ / ٦٢ .

(٢٠) تفسير القرطبي ٧ / ٢٠٧ .

(٢١) على هامش الطبري ٨ / ٩٥ .

(٢٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢١٤ .

ومعنى هذا أن نهاية الآية الكريمة أشارت الى خبر المبتدأ ودلت عليه

« الآية الرابعة »

قال تعالى : « والذين عملوا السيئات ، ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، ان ربك من بعدها لغفور رحيم » (٢٣) •

١ - لم يذكر الطبرى ولا الزمخشري ولا القرطبي ولا النيسابورى ولا ابن كثير شيئاً عن موقع « الذين » (٢٤) •

ويبدو لى من ختام الآية الكريمة بقوله تعالى : « ان ربك من بعدها لغفور رحيم » ان الخبر محذوف ، تقديره : مغفور بهم ، أو مقبولة توبتهم ، أو ناجون من عقاب الله •

« الآية الخامسة »

قال سبحانه وتعالى : « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، انا لا نضيع أجر المصلحين » (٢٥) •

١ - لم يعرض الطبرى لأعراب « الذين » (٢٦) •

٢ - وذكر الزمخشري وجهين : أحدهما ان « الذين » مرفوع بالإبتداء ، وخبره « انا لا نضيع أجر المصلحين » ، لأن المصلحين فى معنى الذين يمسكون بالكتاب ، كقوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا

(٢٣) سورة الاعراف ١٥٣ •

(٢٤) تفسير الطبرى ٩ / ٤٩ و الكشف ٢ / ٩٥ وتفسير القرطبي ٧ / ٢٩٢ وتفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٩ / ٤٨ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٤٨

(٢٥) سورة الاعراف ١٧٠ •

(٢٦) تفسير الطبرى ٩ / ٧٤ •

الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (٢٧) .

والوجه الآخر أن « الذين » مجرور بالعطف على « الذين يتقون »
في قوله تعالى : « والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » ويكون
قوله تعالى : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » اعتراضا (٢٨) .

٣ - ولم يتعرض للأعراب القرطبي ولا النيسابوري ولا ابن كثير (٢٩)

«نسيب»

١ - أستبعد أن يكون « انذين يسكون بالكتاب » معطوبا على
« الذين يتقون » في الآية السابقة ، لأن الذين يتقون أعم من الذين
يسكون بالكتاب ، ولأن بين المعطوف والمعطوف عليه قوله تعالى :
« أفلا تعقلون » ، ثم لأن العطف كان يتعين لو جاءت الآية على هذا
النسق : وللذين يسكون بالكتاب ، ويظهر لى أن قول الزمخشري (إنا
لا نضيع) إعتراض صوابه ان « أفلا تعقلون » هو الإعتراض ، لأن إنا
لا نضيع تذييل لا اعتراض .

٢ - كذلك أستبعد أن يكون الخبر « انا لا نضيع أجر المصلحين »
لانه لا رابط في هذه الجملة يعود على المبتدأ ، واعرابها خبرا يقتضى
تقدير رابط هو (منهم) مثلا ، ولا داعى لإعراب قائم على تقدير ما دام
التعبير محتملا لوجه آخر .

٣ - فما هذا الوجه ؟

أرى أن قوله تعالى : « إنا لا نضيع أجر المصلحين » تذييل يوحى
بالخبر المحذوف ، وأصل التعبير هو : والذين يسكون بالكتاب وقيمون

(٢٧) سورة الكهف ٣٠ .

(٢٨) الكشف ٢ / ١٠٢ .

(٢٩) تفسير القرطبي ٧ / ٣١٣ والنيسابوري ٩ / ٦٩ وابن كثير ٢ / ٢٦٠

الصلاة ثوابهم عظيم عند الله ، ان الله لا يضيع أجر من يحسنون عملا .

« الآية السادسة »

قال تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الامور » (٣٠) .

ما موقع الذين من الاعراب ؟

- ١ - رأى الطبرى أن « الذين » رد على الذين في قوله تعالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » قبل هاتين الآيتين (٣١) .
- ٢ - ورأى الزمخشري أن « الذين » في محل نصب بدل من قوله تعالى : « من ينصره » أو في محل جر تابع للذين في قوله تعالى : « الذين أخرجوا من ديارهم » (٣٢) .
- ٣ - ونقل القرطبي عن الزجاج أن « الذين » في محل نصب على البدل من (من) في قوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره » . وقال غير الزجاج : إنها في موضع جر على البدل من « الذين » في قوله سبحانه : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » (٣٣) .
- ٤ - وذكر النيسابورى انها بدل من قوله تعالى : « الذين أخرجوا » أو بدل من « من ينصره » (٣٤) .
- ٥ - أما ابن كثير فلم يذكر شيئا (٣٥) .

(٣٠) سورة الحج ٤٠ - ٤١ .

(٣١) تفسير الطبرى ١٧ / ١٢٦ .

(٣٢) الكشف ٣ / ٣٥ .

(٣٣) تفسير القرطبي ١٢ / ٧٢ .

(٣٤) على هامش الطبرى ١٧ / ٩٣ .

(٣٥) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣٦ .

«تسقيب»

١ - أستبعد أن تكون كلمة « الذين » معطوفة على « الذين » في قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون » أو على « الذين » في قوله سبحانه : « الذين أخرجوا من ديارهم » أو أن تكون بدلا من (الذين) في هذه الآية الأخيرة ، لأن الفصل طويل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وبين البدل والمبدل منه .

٢ - وخير من هذا أن تكون بدلا من « مَنْ » في قوله تعالى : « من ينصره » كما ذكر الزمخشري والقرطبي والنيسابوري .

٣ - لكنني أفضل أن تكون كلمة الذين مبتدأ خبر محذوف دل عليه قوله تعالى : « والله عاقبة الامور » فيكون التقدير مثلا : لهم العاقبة ، أو لهم النصر ، أو هم الغالبون .

«الآية السابعة»

وهكذا تنسق الفكرة في قوله تعالى : « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (٣٦) .

فإن الخبر محذوف مفهوم من ختام الآية الكريمة ، والتقدير هو : الذين يجادلون في آيات الله بغير دليل مبطلون أو محقوقون . أو مطموس على قلوبهم ، بس الجدل المقوت هذا ، كذلك يطمس الله على قلوب المتكبرين .

«الآية الثامنة»

وكذلك في قوله تعالى : « الذين ييخلون ويأمرؤن الناس بالبخل ، ومن يتولّ فإن الله هو الغنى الحميد » (٣٧) .

(٣٦) سورة غافر ٣٥ .

(٣٧) سورة الحديد ٢٤ .

الخبر محذوف تقديره لا يحقق بخلهم الا بهم ، أو لا يضرهم الله
شيئا بخلهم •

« ثانيا »

حذف ما بعد لا النافية للمساواة

كثر في القرآن الكريم نفى المساواة بين شيئين أو أكثر بهذين
الأسلوبين : الأول أن تتقدم أداة النفي على الفعل الدال على المساواة ،
ويذكر بعده الشئان أو الأشياء التي لا تتساوى ، كما في قوله تعالى :
« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل
الله بأموالهم وأنفسهم » (٢٨) •

وقوله سبحانه : « وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ
شرابه ، وهذا ملح أجاج » (٣٩) •

الثاني أن يتقدم ذكر الشيئين أو الأشياء المراد نفى المساواة بينها ،
ويجىء نفى التسوية بعد ذلك ، نحو قوله تعالى : « مثل الفريقين كالأعمى
والأصم ، والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟ » (٤٠) •

ونحو قوله سبحانه : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا
لا يستوون » (٤١) • لكن في القرآن الكريم نفيا للمساواة بأسلوب آخر
اذ جاءت فيه (لا) النافية مكررة بعد عطف في ثلاث آيات •

« الآية الاولى »

قال تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ،

(٣٨) سورة النساء ٩٥ •

(٣٩) سورة فاطر ١٢ •

(٤٠) سورة هود ٢٤ •

(٤١) سورة السجدة ١٨ •

ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، ان الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من في القبور ، ان أنت الا نذير » (٤٢) .

فنفث (ما) في الآية الكريمة الأولى المساواة بين اثنين متضادين هما الأعمى والبصير ، سواء أكان المراد بالعمى والبصر معناهما الحقيقي أم المراد معناهما المجازي وهو الكفر والإيمان ، وهذا النفي على الأسلوب المعهود . لكن النفي جاء بعد ذلك بالحرف (لا) في أسلوب آخر : « ولا الظلمات ولا النور » و « ولا الظل ولا الحرور » و « وما يستوى الأحياء ولا الأموات » . فلماذا جاءت (لا) مكررة بعد الظلمات ، وبعد الظل ، وبعد الأحياء ؟ لقد تتبعنا ما ذكره بعض المفسرين ، وآثرت أن أثبتته مرتبا ترتيبا زمنيا ، ثم أتأمله ، لعلنى أرجح بعضه ، أو لعلنى أعرض رأيا آخر فيه جدة .

١ - ذكر ابن جرير الطبري (المتوفى ٣١٠ هـ) رأيين :

أولهما أن بعض نحاة البصرة ذهبوا الى أن (لا) تشبه أن تكون زائدة ، لأنك لو قلت : لا يستوى عمرو ولا زيد في هذا المعنى لم يجز .
الا أن تكون (لا) زائدة .

والثاني أن غيرهم قال : اذا لم تدخل (لا) مع الواو فانما لم تدخل اكتفاء بدخولها في أول الكلام ، فاذا دخلت فانه يراد بالكلام أن كل واحد منهما لا يساوى صاحبه ، فمعنى الكلام اذا أعيدت (لا) مع الواو عند صاحب هذا القول : لا يساوى الأعمى البصير ، ولا يساوى البصير الأعمى ، فكل واحد منهما لا يساوى صاحبه (٤٣) .

٢ - وذكر الزمخشري (٥٣٨ هـ) أن (لا) لتأكيد معنى النفي (٤٤) .

(٤٢) سورة فاطر ١٩ - ٢٣ .

(٤٣) تفسير الطبري ٢٢ / ٨٥ .

(٤٤) الكشف ٣ / ٢٧٣ .

٣ - ونقل القرطبي (٦٧١ هـ) عن الأخفش سعيد أن (لا) زائدة ، والمعنى ولا الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور (٤٥) .

٤ - وقال النيسابوري (٧٢٨ هـ) أن (لا) كررت في الأمثال الأخيرة دون الأول لأن المناقاة بين العمى والبصر ليست ذاتية كما في سائرهما ، وقد يكون شخص واحد بصيرا بإحدى العينين أعمى بالأخرى (٤٦) .

٥ - وذهب أبو حيان الاندلسي (٧٥٤ هـ) الى أن (لا) زائدة لتأكيد النفي ، وحكى عن ابن عطية أن دخولها يفيد التكرار ، كأنه قال : وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ، ولا الأموات والأحياء ، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ، ودل مذكور الكلام على متروكه . ثم رد أبو حيان على هذا الرأي بقوله : وما ذكر غير محتاج الى تقديره ، لأنه اذا نفى استواء الظلمات والنور فأية فائدة في تقدير نفى استوائهما ثانيا وادعاء محذوفين (٤٧) ؟

٦ - أما ابن كثير (٧٧٤ هـ) فانه لم يعرض للحرف (لا) (٤٨) .

٧ - وأما الزركشى (٧٩٤ هـ) فانه نقل عن ابن عطية أن (لا) دخلت على نية التكرار ، كما سبق فيما نقله عنه أبو حيان الاندلسي (٤٩) .

٨ - ثم كتب فضيلة المرحوم الدكتور عبد الرحمن تاج بحثا مفصلا أثبت فيه أن النفي في هذه الآيات مسلط على الأفراد نفسها ، لأن الظلمات الحقيقية الحسية متعددة متفاوتة قوة وضعفا وشدة وخفة ، وكذلك

(٤٥) تفسير القرطبي ١٤ / ٣٣٩ .

(٤٦) تفسير النيسابوري على هامش الطبري ٢٢ / ٨٤ .

(٤٧) البحر المحيط ٧ / ٣٠٨ .

(٤٨) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٢ .

(٤٩) البرهان في علوم القرآن للزركشى ٣ / ١٢٣ ، ٤ / ٣٥٧ .

الظلمات المعنوية التي جعلت تلك تمثيلا لها وهي الضلالات ، فهي أنواع متفاوتة أيضا ، وكل من النور الحسى المعهود والمعنوى الذى هو الهداية والرشاد له أفراد متفاوتة قوة وضعفا .

ومثل هذا يقال فى الظل والحرور ، فهما مختلفان حسيا شدة وخفة ، أى أن لكل منهما أفرادا متفاوتة فى ذلك ، وقد قال العلماء ان المقصود بهما فى الآية الإشارة الى المصير الأخرى وما يلقاه الإنسان فيه من الجزاء ، فهما تمثيل للثواب والعقاب وكل من الثواب والعقاب درجات متفاوتة تفاوتاً عظيماً .

وكذلك الحال فى الأحياء والأموات وما جعل الأحياء والأموات تمثيلا لهم وهم المؤمنون والكفار ، كل منهم ذوو مراتب ودرجات .

وإذا كان ذلك كذلك أمكن أن يحمل نفى الاستواء فى كل واحد من هذه المذكورات على أنه نفى استوائه فى نفسه ، أى نفى تساوى أفرادها ذاتها ، ويكون هذا أولى وأرجح مما قيل من زيادة (لا) لأنه يحفظ أصالتها ، ويوفر عليها معناها (°) .

«تسقيب»

١ - هكذا تبين أن الآراء السابقة تدور فى عدة اتجاهات ، لأن (لا) إما زائدة أو شبه زائدة، وإما لتأكيد النفى، وإما أصيلة والنفى منصب على كل كلمة بعدها ، لأن الظلمات درجات ولأن النور درجات ، وإما أصيلة تؤدى معنى مفهوما من السياق، ولكن ما بعدها محذوف دل عليه المذكور .

فأما القول بزيادتها أو شبه زيادتها فإنه مرفوض ، لأن القرآن الكريم وهو ذروة البلاغة أسمى من أن يقع فيه حرف مزيد أو كلمة مقحمة .

فإن قيل ان الزيادة لغرض بلاغى ، كان هذا القول دليلا على الأصالة

(٥٠) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين ٨٣ .

واستبعادا للزيادة لأن الغرض البلاغى لا يتم بغير ما قيل انه مزيد •
وأما القول بأنها لتوكيد النفى فانه مردود بأن هذا التوكيد لم يجرى
فى نفى المساواة بين الأعمى والبصير ، فلماذا جاء فى نفى المساواة بين ما
بعدهما ؟ ولو أنها مكررة لتوكيد النفى لوافق جميع المفسرين على
هذا القول •

وأما الحكم بأنها أصيلة جاءت لنفى المساواة بين ما تدل عليه كل
كلمة بعدها من درجات ودركات فأننى أرى أنه لا يلائم الغرض من الآيات
الكريمة ، لأنها تمدح الإيمان وترغب فيه وتشوق إليه ، وتذم الكفر وتنفر
منه وتحذر من عواقبه بتمثيل حسى لا شك فيه هو أن البصير والأعمى
لا يتساويان ، وأن النور والظلام متناقضان ، وأن الظل والحر متضادان ،
وأن الحى والميت متباينان ، فكذاك الإيمان والكفر •

ومعنى هذا أنه ليس المراد من الآيات الكريمة أن النور درجات وأن
الظلام درجات ، ولا أن الظل طبقات وأن الحر طبقات ، ولا أن الأحياء
أصناف وأن الموتى أصناف ، لأن هذا معناه أن المؤمنين ذوو درجات وأن
الكفار أصحاب درجات ، وهذا حق ، ولكنه لا يفيد فى هذا المقام مقام
الترغيب فى الإيمان وبيان آثاره الطيبة الحميدة والتنفير من الكفر وتبيان
جرائره الخبيثة •

وإذا كان المؤمنون أصحاب درجات عالية تناسب إيمانهم بالله وطاقاتهم
له ، فإن الكفار لا يدينون بأنهم أصحاب درجات تناسب كفرهم وأعمالهم ،
ولو أنهم آمنوا بهذا فإن إيمانهم به مقطوع عن التفرقة المحسوسة بين
هداية الإيمان وضلال الكفر التى مثلتها الآيات الكريمة بأربعة أمثلة لا
يمترى أحد فى الإقرار بتباينها •

٢ - وكنت قد فكرت طويلا فى هذا الأسلوب ، ثم سنع لى رأى

استرحت اليه ، فلما تتبع آراء المفسرين وجدت ابن عطية قد أشار الى هذا الرأي (٥١) ، فازددت به اقتناعا ، وهو - والله أعلم - أن في الكلام محذوفا دل عليه السياق ، والكلام بغير حذف هو : وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ، ولا الأموات والأحياء .
ومن عجب أن رأى ابن عطية ظل مجهولا أو مغمورا هذا الزمان الطويل .

وقد يبدو هنا سؤال هو : اذا كانت المساواة بين الظلمات والنور قد نفيت فلماذا كرر هنا النفي بين النور والظلمات ؟

واذا كان نفي المساواة بين الظل والحرور قد وقع فلماذا كرر هذا النفي بين الحرور والظل ؟

واذا كان نفي المساواة بين الأحياء والأموات قد حدث فلماذا كرر النفي بين الأموات والأحياء ؟

أليس في النفي الأول ما يغني عن الثاني ؟

والجواب عن هذا أن المراد بنفي المساواة بين الظلمات والنور كما في الآية الكريمة هو الدلالة على أن الظلام لا يستطيع أن يتسامى الى النور في اشراقه وهدايته وجماله ونفعه وارتياح النفوس له وشوقها اليه ، ومعنى هذا أن وجه الشبه مقصور على النور .

أما نفي المساواة المقدر بين النور والظلمات فإن المراد منه أن النور لا يمكن أن يهبط الى ما يتصف به الظلام من قتام وتضليل ووحشة ومجلبة للضيق والكآبة والحيرة والمعاطب ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظلام .

(٥١) كما ذكر أبو حيان الاندلسي في رقم (٥) والزركشي في رقم (٧) .

كذلك لا يمكن أن يهبط الظل الى درك الحر اللافت الخائق الداعي الى الضجر والضيق والسأم والسقم ، فوجه الشبه هنا مقصور على الحر ، ولا يمكن أن يسمو الحر الى مقام الظل البارد المنعش الشارح للصدور الملائم للحياة الطيبة والعمل المثمر ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظل .

وكذلك لا ينزل الحي الى أن يساوى الميت في فقدانه للحياة وفي مخافة الناس من جثته ومسارعتهم الى دفنه ، فوجه الشبه هنا مقصور على الميت ، ولا يستطيع الميت أن يشبه الحي المتحرك النامي المستمتع بمظاهر الشعور كلها ، أى أن وجه الشبه مقصور على الحي .

ومن هذا كله يتبين أن الإيمان والكفر متباينان أشد التباين ، فلا المؤمنون يشبهون الكفار في جحودهم لربهم وفي ضلالهم ومعصيتهم مخالفتهم وفي غضبه عليهم وفي عقابهم المتوقع ، ولا الكفار يشبهون المؤمنين في إيمانهم بربهم ، وفي اهتدائهم لطاعته ، وفي رضوانه عليهم ، وفي ثوابهم المأمول .

والغرض من هذا تأكيد المخالفة ، وزيادة توضيح المباعدة ، كما نقول: ليس الناجح كالراسب ، ولا الراسب كالناجح ، ونحن نريد أن الناجح لا يشبه الراسب في اخفاقه وحسرتة ، وأن الراسب لا يشبه الناجح في ظفوره وبهجته .

والحذف هنا ضرب من البلاغة القرآنية التي تستغنى بالمدكور عن المحذوف المفهوم . وقد يسترعى الانتباه أن الآيات الكريمة نفت مساواة الأدنى للأعلى في حالتين هما العمى والبصر والظلام والنور ، ونفت مساواة الأعلى للأدنى في حالتين هما الظل والحرور ، والحياة والموت ، وحينما نقدر المحذوف يتقدم الأدنى تارة ويتقدم الأعلى تارة ، والغرض من التكرير بتقديم الأدنى مرة وتقديم الأعلى مرة تأكيد المنافاة وإبطال المشابهة على أى وجه من الوجوه ، سواء تقدم الأعلى أم تقدم الأدنى .

ولا شك أن الأسلوب الشائع في القرآن الكريم وفي غيره يجرى على نفى مشابه الناقص للكامل ، ولكن بعض الآيات الكريمة جاءت لتنفى عن الكامل شبهه بالناقص ، مثل قوله تعالى : « فلما وضعتها قالت رب انسى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانسى سميتها مريم » (٥٢) .

فتحصرت لأن أملمها في أن يكون ما في بطنها ذكراً أخفق ، وقد نذرتة محرراً لسدانة المسجد الأقصى ، وعبرت عن حسرتها بأنها وضعت أنثى ، وبأن الذكر في قوته وجلده على العبادة وقدرته على خدمة البيت ليس كالأنثى في ضعفها ولينها وقلة احتمالها ، وكان المعهود أن تقول وليست الأنثى كالذكر .

ومثل قوله سبحانه : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقين ، فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا » (٥٣) .

جاءت الآية الكريمة على هذا النسق ، ولم تجيء هكذا : ليس أحد من النساء مثلكن .

أى أنكن يا نساء النبي لستن في شرف مكاتكن وعلاء قدركن ونظرة المسلمين والمسلمات اليكن مثل النسوة الأخريات في مكاتتهن العادية وافتقارهن الى مثل فضلكن وسابقتكن وصلتك برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك قوله تعالى : « أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون » (٥٤) فقدم الأعلى في نفى المشابهة ، لأن المراد هل يستوى الله تعالى وهو

(٥٢) سورة آل عمران ٣٦ .

(٥٣) سورة الاحزاب ٣٢ .

(٥٤) سورة النحل ١٧ .

الخالق القوى القادر بآلهة تعبدونها وهى مصنوعة مخلوقة عاجزة عن
الخلق وعن النفع والضرر ؟

وقوله سبحانه : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟
لا يستوون » (٥٤) •

ولهذا الأسلوب نظائر فى الشعر القديم ، منها قول المرقش الأكبر :

لسنا كأقوام مطاعهم كسب الخنى ونهكة المحرم (٥٦)

فنفى عن الأعلين الذين يتعففون فى كسب المال شبههم بالأدنين الذين
يسلكون الى كسب المال أى طريق ، وكان الأسلوب الشائع أن يقول :
ليس أصحاب الفساد وانتهاك الحرم مثلنا •

ومنها قول معن بن أوس فى شكواه من ابن عمه :

ويسعى اذا أبنى ليهدم صالحى وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم

وكان المتوقع أن يقول وليس الذى يهدم كالذى يبنى ، ولكنه أراد
بهذا الأسلوب أن الذى يبنى مجد القبيلة يتصف بالنفع والغيرة والاصلاح
والايثار والشرف فلا يشبه الذى يهدم مجد القبيلة ، لأنه يتصف بالتخريب
والتدمير والحقم والفساد والدمار •

وقول النجاشى فى رده على قصيدة كعب بن جعيل :

جعلتم عليا وأشياعه نظير ابن هند أما تستحونا ؟

فهو يلوم الشاميين لأنهم هبطوا بمكانة على الى منزلة معاوية ، ولم
يقبل انهم ارتفعوا بمعاوية الى مقام على •

(٥٥) سورة السجدة ١٨ •

(٥٦) الفضليات ٢ / ٤٠ الخنى : الفساد . نهكة المحرم : انتهاك الحرم أى
لا نهجو الناس ليعطونا •

« الآية الثانية »

قال سبحانه وتعالى : « وما يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات
ولا المسيء ، قليلا ما تتذكرون » (٥٧) .
فماذا قالوا في (لا) هنا ؟

- ١ - اكتفى الطبري بتفسير الآية مكررا الحرف لا (٥٨) .
- ٢ - وصنع الزمخشري صنيعة (٥٩) .
- ٣ - وكذلك صنع القرطبي (٦٠) .
- ٤ - أما النسائي (٧٠١ هـ) فقال انها زائدة (٦١) .
- ٥ - وأما النيسابوري فلم يذكر شيئا (٦٢) .
- ٦ - وأما أبو حيان الاندلسي فقال انها كررت لتوكيد النفي ، لان
جملة الصلة وما عطف عليها طالت (٦٣) .
- ٧ - وأما ابن كثير فلم يذكر شيئا (٦٤) .
- ٨ - وأما أبو السعود (٩٨٢ هـ) فقال مثل أبي حيان ، وزاد عليه
أن المقصود نفي مساواة المسيء للمحسن فيما له من الفضل
والكرامة ، وقال : هذا الرأي الثاني هو الصواب ، لأن (لا)

(٥٧) سورة غافر ٥٨ .

(٥٨) تفسير الطبري ٢٤ / ٥١ .

(٥٩) الكشف ٣ / ٣٧٥ .

(٦٠) تفسير القرطبي ١٥ / ٣٢٥ .

(٦١) تفسير النسفي ٢٤ / ٢٥٧ .

(٦٢) على هامش الطبري ٢٤ / ٥٢ .

(٦٣) البحر المحيط ٧ / ٤٧٢ .

(٦٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٨٥ .

هنا أصيلة دلت على أن المسىء لا يساوى المحسن بعد أن فهم
من الآية نفسها أن المحسن لا يساوى المسىء ، لأن التقدير في
(الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ولا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات (٦٥) .

٩ - ثم ذهب فضيلة المرحوم الدكتور عبد الرحمن تاج الى مثل
رأيه السابق ، وهو أن المراد نفى استواء المؤمنين الذين
يعملون الصالحات أنفسهم ، لان أفرادهم كثيرون متفاوتون في
قوة الايمان والعمل الصالح ، ثم ان المقابل الذى هو المسىء
في العقيدة والعمل له أفراد كثيرون أيضا متفاوتون في درجات
هذه الاساءة ، فأريد نفى المساواة فيما بينهم بقوله سبحانه
« ولا المسىء » . ولا شك أن مجموع هذا وذلك يلزمه انتفاء
المساواة بين المحسنين في العقيدة والعمل والمسيئين فيهما ، فانه
إذا ثبت أن النوع الواحد قد انتفت المساواة فيه نفسه أى
انتفى التساوى بين أفرادها فانه يلزم انتفاء المساواة بين النوعين
أو بين أفراد النوعين بالطريق الأولى ، وهذه نتيجة لا يمكن
الوصول اليها مع زيادة (لا) (٦٦) .

«تعقيب»

١ - هكذا مر بعض المفسرين بالآية مرورا لا ذكر فيه للحرف (لا)،
وذهب آخرون الى مثل ما ذهبوا اليه في الآية السابقة ، والتعقيب هنا لا
يختلف عن التعقيب هناك .

٢ - والذي أرجحه - والله أعلم - ان في الكلام حذف يدل عليه

(٦٥) تفسير أبى السعود ٧ / ٦٣١ .

(٦٦) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين .

السياق ، وبغير هذا الحذف يكون التعبير هكذا : وما يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين كفروا وعملوا السيئات ، ولا الذين كفروا وعملوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات .

أى ان المؤمنين لا يشبهون الكفار فى ضلالهم وفساد عقائدهم وسوء أعمالهم والعذاب المعد لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالكفار ، وكذلك لا يشبه الكفار المؤمنين فى اهتدائهم وصواب عقائدهم وطيب أعمالهم واستحقاقهم ثواب الله المعد لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالمؤمنين .
ومن هذا يتبين أن فى الآية محذوفاً دل عليه الكلام الباقى وأغنى عنه .

« الآية الثالثة »

قال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٦٧) .

١ - قال الطبرى ان (لا) مكررة ، وذكر أن بعض نحويى البصرة رأى أنها زائدة للتوكيد (٦٨) .

٢ - وذكر الزمخشري أن (لا) مزيدة ، أو أصلية للدلالة على أن كلا من الحسنة والسيئة متفاوتة فى نفسها (٦٩) .

٣ - وقال القرطبي نقلاً عن الفراء ان (لا) صلة زائدة (٧٠) .

٤ - وذكر النيسابورى أنها زائدة لتوكيد نفى الاستواء (٧١) .

(٦٧) سورة فصلت ٣٤ .

(٦٨) تفسير الطبرى ٢٤ / ٧٤ .

(٦٩) الكشف ٣ / ٣٩٢ .

(٧٠) تفسير القرطبي ١٥ / ٣٦١ .

(٧١) على هامش الطبرى ٢٥ / ١٠ .

٥ - وذكر أبو حيان الاندلسي أنها اما زائدة واما أصلية دلت على أن الحسنات مختلفات وأن السيئات مختلفات أيضا (٧٢) .

٦ - أما ابن كثير فلم يذكر شيئا (٧٣) .

٧ - وأما الزركشى فقال ان (لا) تزداد مع الواو بعد النفي كما في هذه الآية ، وقال أيضا انها دخلت في السيئة لتحقيق أنه لا تساوى الحسنة السيئة ولا السيئة الحسنة ، وقيل أنها ليست زائدة لأن جنس الحسنة لا يستوى أفراده وجنس السيئة لا يستوى أفراده ، وهو الظاهر من سياق الآية (٧٤) .

٨ - وارتضى المرحوم الدكتور عبد الرحمن تاج ما ارتضاه في الآيتين السابقتين وهو أن المراد نفى استواء أفراد الحسنة ثم نفى استواء أفراد السيئة ، فثبت بطريق الأولى عدم التساوى بين الحسنة والسيئة (٧٥) .

« تعقيب »

١ - تبين أن الآراء التي قيلت هنا لا تختلف عما قيل في الآيتين السابقتين ، فلا حاجة الى مناقشة ، لأن المناقشة السابقة تغنى .

وإذا كان من الحق أن الحسنات متفاوتة القدر والأثر والمثوبة وأن السيئات مختلفة الجرم والضرر والعقوبة ، ولهذا جاءت (لا) أصيلة لنفى المساواة بين أفراد ما بعدها ، إذا كان هذا حقا فإنه لا يناسب ما تتوخاه الآية الكريمة من تبين الفرق الجسيم بين الخير والشر ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الإحسان والإساءة ، تمهيدا للأمر بالحلم والصبر

(٧٢) البحر المحيط ٧ / ٤٩٨ .

(٧٣) تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٠ .

(٧٤) البرهان وعلوم القرآن ٣ / ٧٨ و ٤ / ٣٥٧ .

(٧٥) البحوث والمحاضرات للدورة الثالثة والثلاثين .

والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة في قوله تعالى : « وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » ، لأن هذه المقابلة تستل سخائم النفوس ، وتلين القلوب ، وتغرس المودة ، وتوثق صلة الفرد بالفرد وصلة المجموع بالمجموع .

٢ - فأرجح - والله أعلم - ان في الكلام محذوفا ، لأن أصله : ولا تستوى الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة ، أى لا تستوى الحسنة والسيئة في شرور السيئة وأذاها وإشغالها للضعف والعداء والانتقام ، ولا تستوى السيئة والحسنة في محامد الحسنة وطيب آثارها وتأليفها قلوب الأفراد والجماعات .

ولا شك أن التعبير بهذه الصورة يتضمن أيضا توكيدا لنفي التساوى بين الحسنة والسيئة ، سواء أكان المقصود محامد الحسنة أم مخازى السيئة أم بيان الفروق العظيمة بينهما كما سبق في الآية الأولى .